

مسيرة الحلم: من بغداد الى مدريد*

باهرة عبداللطيف ياسين/ إسبانيا

مدخل إلى التجربة

كنت طفلة لم أخط العاشرة حين وجدت كتاباً في مكتبة والدي - الناشر المعروف ببغداد- عن فتح الأندلس، لعلها كانت رواية الأديب اللبناني المعروف جرجي زيدان، اختفت تفاصيلها وبقي منها أجواء حلمية تتردد فيها أسماء عربية وأخرى إسبانية (فرديناند، إيزابيل، رودريك أو لذريق، الكونت يوليان، فلورندا ابنة يوليان، طارق بن زياد،...). وفي تلك السن أيضاً قرأت رواية أخرى منزوعة الغلاف بعنوان (رامونا)، اكتشفت لاحقاً إنها لهيلين هانت جاكسون تتحدث فيها عن معاناة سكان أمريكا الأصليين، بقي في ذهني منها أجواء الصراع في كاليفورنيا في أعقاب الحرب بين المكسيك والولايات المتحدة الأمريكية، وعلاقة ربطت بين رجل مكسيكي من أصل إسباني وحبيبته رامونا.

ومع أنني قرأت في ما بعد روايات أخرى مترجمة إلى العربية عن الفرنسية والإنجليزية والروسية فقد سحرتني أجواء وأحداث هاتين الروائيتين على وجه التحديد، ولعلها سكنتني وكانت سبباً في لاوعيي في اختيار دراسة اللغة والأدب الإسباني في كلية اللغات بجامعة بغداد، والتخصص فيهما حتى اليوم، لأعمل وأنجز من خلال ولعي بالأدبين الإسباني والأمريكي اللاتيني. وهكذا خطّ القدر توجهاتي اللاحقة وأنا بعد طفلة.

الآن، كيف أوجز في بضع صفحات ما تعنيه لي إسبانيا عبر حياتي التي أمضيتها فيها منذ قرابة ثلاثين عاماً؟ كيف ألمم كل ما تراكم من تجارب وخبرات على مقاعد الدراسة في بغداد أولاً ثم في مدريد وسالامانكا - شلمنقة حسب التسمية العربية القديمة- وسانتاندير مع زميلات وزملاء إسبان، وأساتذة فتحوا لي آفاقاً معرفية هائلة ما زلت أنهل منها بعد هذه الأعوام، أو لاحقاً من خلال عملي أستاذة في الجامعات الإسبانية مع طلبتي وزملائي الإسبان، بالتزامن مع عملي مترجمةً فوريةً في مئات المؤتمرات في شتى مدن إسبانيا وخارجها؟ كيف أختصر وجوهاً صديقة أحاطتني بمحبتها في أحلك

لحظات حياتي في أثناء الحروب التي تعرض لها أهلي وأحبتي في العراق؟ كيف أشرح فكرة الوطن الثاني الذي يحتضنك في لحظة تجد نفسك فيها بلا وطن؟ كيف أمرّ على كل ما عنته وتعنيه لي إسبانيا التاريخ والأرض والإنسان في هذه العجالة؟

أعترف بأنها مهمة عسيرة حقاً، ولكن لا بد من المحاولة...!

محاولة أولى:

انتظمت عام 1975 في دراسة اللغة والأدب الإسبانيين في كلية الآداب بجامعة بغداد، وهناك كان لقائي الأول بنخبة من مدرّسين أجلاء عراقيين وإسبان علموني الأدب واللغة والثقافة الإسبانية، وفتحوا لي آفاقاً معرفية لم تتح لكثيرين. ما زلت أدين لهم بالفضل الكبير في كل ما أنا عليه في مسيرتي كمختصة وباحثة في اللغة والثقافة الإسبانية، وفي مقدمتهم البروفيسور الراحل رافائيل بالنثيا الذي غدا مستعرباً مرموقاً، بعد أن تخصص في تاريخ إسبانيا الإسلامية ووضع الكثير من المؤلفات ودرّس في جامعات عربية وعالمية ورأس في أعوامه الأخيرة أكاديمية إشبيلية للفنون. وقد كان خير عون لنا نحن الطلاب إذ قرّب تاريخ إسبانيا وثقافتها إلينا من خلال علمه الغزير وفيض روحه السخية، مستعيناً بشروحات ضافية بالإسبانية والعربية، الأمر الذي سهل علينا المهمة ونحن نتلمس خطواتنا الأولى في مسالك اللغة الإسبانية.

وحين نجحنا من المرحلة الثالثة إلى الرابعة أرسلتنا الجامعة في منحة دراسية أنا وزميلات وزملاء من المتفوقين إلى إسبانيا في رحلة علمية صيفية لثلاثة أشهر، ما بين سالامانكا وأندالوسيا. تلك كانت أول مرة زرت فيها إسبانيا وأنا في التاسعة عشرة من عمري، وقد غرست في روحي حباً وتعلقاً بالأرض والتاريخ والثقافة ترسّخ في ضميري مع مضي الأعوام.

رافقنا في تلك الرحلة مشرفاً علينا أستاذ الأدب الأندلسي العالم الجليل الدكتور محسن جمال الدين رحمه الله، بينما كان ينتظرنا البروفيسور رافائيل بالنثيا في أشبيلية بعد أن سبقنا إليها لقضاء عطلته الصيفية بين الأهل هناك. بصحبته جينا شوارع أشبيلية

وشواهد ذات البصمة العربية المميزة، وغمرنا بلطفه وعنايته وكرمه. سلاماً لروحه التي رحلت عنا في حزيران من العام الماضي وتقديراً من طالبة ممتنة له أبداً.

في تلك الرحلة زرنا أشبيلية وقرطبة وقرطبة حيث اكتشفت أهم رابط مشترك لنا كعرب بإسبانيا: تاريخ الأندلس وشواهد الحضارة العربية الإسلامية. وكان ذلك بمثابة كشف عظيم لي وإعادة فهم لجزء مهم من تاريخنا أفادني في مدّ جسور الحوار مع المستعربين والمتقنين الإسبان، وحتى مع بعض رجال الكنيسة ممن يؤمنون بالحوار واحترام ثقافة الآخر المختلف. الأندلس بوصفها تاريخاً مشتركاً لنا يهمنّا جميعاً وليس ساحة صراع وتعصب. من هنا انخرطت في ندوات ومؤتمرات تدعو للحوار القائم على التفاعل الثقافي واحترام التعددية والاختلاف. ومن هذا المنطلق أيضاً عكفت على ترجمة عدة كتب إسبانية تتناول أدب وتاريخ العرب والمسلمين في الأندلس.

أما مدينة سالامانكا فقد كشفت لي عن وجه عريق آخر لإسبانيا لم أكن أعرفه، يعكس صورة إسبانيا الكاثوليكية الصارمة المتقشفة، لكنّه أسرني بتراثه الشعري الصوفي، أولاً عبر أعمال الراهب الزاهد الشاعر والمترجم وأستاذ اللاهوت فراي لويس دي ليون الذي ينتصب تمثاله في باحة الجامعة التي تحمل اسمه. وقد عدّ من خيرة أدباء عصر النهضة الإسباني في القرن السادس عشر، ومن بين ترجماته التي قام بها بدون إذن الكنيسة كان (نشيد الإنشاد) الذي نقله من عبرية العهد القديم مباشرة وليس من اللاتينية إلى الإسبانية العامية، الأمر الذي أغضب محكمة التفتيش واستحق عقابها لما احتواه من كلمات وصور عدت حسية آنذاك. وقد سجن لأكثر من أربعة أعوام لأسباب مضافة من بينها حسد زملائه. وحين عاد أول مرة إلى التدريس في جامعة سالامانكا، وكان معتاداً أن يوجز محاضرة الأمس لطلبته قبل البدء بالدرس، قال جملته التي باتت مشهورة: " قلنا بالأمس..." هكذا بدأ الدرس كما لو أن سنوات السجن الأربع لم تمر عليه بقسوتها ولم ينقطع يوماً عن طلبته. هذه العبارة الوجيزة، العميقة بمغزاها، كان لها الأثر الكبير في نفسي، وهكذا ترجمت بعضاً من أشعاره إلى العربية بعد أعوام ونشرتها. كان ذلك قبل أن أتعرف على أشعار القديسة تيريزا الألبيلية والقديس

يوحنا الصليب وأشغف بها، وقد ترجمت بعضاً من أشعارهما، وقمت في مناسبات عدة بعقد قراءات شعرية- موسيقية لشعريهما مع مختارات من الشعر الصوفي الإسلامي.

كما تعرفت على نتاج الكاتب والفيلسوف ميغيل أونامونو (1864-1936) الذي رأس جامعة سالامانكا لسنوات طوال، وانشغلت به وتعذبت في محاولة فهم كتابه الفلسفي "عن الحسن المأساوي للحياة" الذي عدّه خلاصه أفكاره الفلسفية والذي حاول من خلاله تجسيد فهمه للأنسان: "ذلك الكائن لحماً وعظماً". ثم عكفت على ترجمة روايته "الضباب" التي ابتكر لها جنساً سردياً أسماه "نيفولا" بدلا من "نوفيل" Novela لأن الأشخاص والأحداث تنمو داخل السرد من خلال الحوار وفي أثنائته وليس ما يقرره الراوي مسبقاً، إلا أنها بقيت مخطوطة لم يقدر لها أن تنشر أبداً.

كان ذلك أول لقاء لي بإسبانيا حيث تعرفت، فضلاً عن أدبها الثر، وجوهاً تحمل ملامح مألوفة لدي تماماً بسحنات سمر أعرفها، وميزت أسماء عربية لشوارع ومدن وأنهار لا حصر لها، وكلمات كثيرة اكتشفت لاحقاً أصلها العربي، وقد فاق عددها أربعة آلاف كلمة ما زالت تستخدم حتى اليوم.

حين عدنا من تلك الرحلة إلى العراق كان شيء ما في أعماقي قد تغير إلى الأبد. ورحت أتردد على المعهد الثقافي الإسباني، يوم لم يكن هناك إنترنت ولا فضائيات، لنحصل على بعض الصحف القديمة كي يتسنى لنا قراءة بعض الأخبار عن إسبانيا التي كانت تطوي مخلفات العهد الديكتاتوري عبر أعوام المرحلة الانتقالية لترسي دعائم الديمقراطية التي ساستظل بها بعد أعوام وأعيش محمية في كنفها.

محاولة ثانية:

في عام 1980 ابتعثتنا الحكومة العراقية إلى مدريد لدراسة الترجمة الفورية والتحريرية، وقد وقع الاختيار على جامعة أوتونوما بمدريد، الحديثة بأفكارها التقدمية، وكان المستعرب الكبير البروفيسور بيدرو مارتينيث مونتابل رئيساً لها. أما البروفيسور أميليو نانثيث الذي أصبح بعد ذلك عضواً في الأكاديمية الملكية للغة الإسبانية فقد كان المشرف على دراستنا بعلمه العزيز وشخصيته الفريدة من نوعها.

كان جميع الأساتذة من المستعربين المميزين ومنهم البروفيسورة كارمن رويث برافو، والخبير في الفقه الإسلامي البروفيسور خوسي أغيليرا، والأستاذ سيرافين فانخول الذي عرفته محباً للعرب آنذاك قبل أن ينقلب عليهم!، ومجموعة من الأساتذة العرب الكبار المتخصصين في اللغة والثقافة الإسبانية كالدكتور محمود الآغا والدكتور محمد الجعيدي وكلاهما من فلسطين، والدكتور خالد الصواف من سوريا، والدكتور محمود السيد من مصر.

تلقيت هناك محاضرات لا تمحى من ذاكرتي في شتى حقول المعرفة، من تاريخ وفن وأدب وموسيقى وأدب أمريكا اللاتينية ما جعلني أمضي في هذا الطريق بعشق وتفاعل جميل حتى اليوم. إذ تعرفت على أدب إسبانيا القديم والحديث وثقافتها، وتاريخ غزو القارة الأمريكية وأدب أمريكا اللاتينية الذي فتح عيني على عالم مدهش من كبار الكتاب والأدباء كبورخيس الفز الذي استغرقني أدبه منذ زمن طويل وما زلت حتى اليوم أبحث في أعماله وعالمه الفسيح وأكتب فيهما.

كنا نمضي شهور العطلة الصيفية الثلاثة في جامعة مينيندث بيلايو بمدينة سانتاندير الجميلة، هناك عشت أسعد أيامي وأنا أنهل من علومها وآدابها وفنونها حيث كنت أنصت بانبهار إلى أستاذه الشاعر الرائع خوسي بيرو، وأجهد بأعوامي العشرين لأفهم العالم من خلال محاضرات السياسي المعروف مانويل مدينا، والاقتصادي الكبير رامون تاماميس وسواهم من كبار المفكرين.

في ذلك الصرح العلمي العريق عرفت أساتذة ومحاضرين استثنائيين تشربت منهم حب اللغة القشتالية وآدابها وعلومها وفنونها وموسيقاها، وثقافة هذا البلد العريق إسبانيا، بكل ألوانها وتعبيراتها الأدبية والفنية والموسيقية والسينمائية، إذ كانت بلدية مدينة سانتاندير تنظم العروض الثقافية والفنية للجمهور على مدار أيام الصيف.

لا يفوتني هنا أن أذكر أن مطالع الثمانينات تلك كانت هي فترة "الحراك المدريدي" - La movida madrileña - ولم أدرك مدى أهمية تلك الأعوام إلا لاحقاً. فقد كانت موجة من الثقافة المضادة والحراك الاجتماعي والفني والثقافي انطلقت

من مدريد إلى باقي المدن الكبيرة الأخرى كبرشلونة وبلباو وبيغو. وشكّلت ثورة على السائد القديم واستمرت في أثناء المرحلة الإنتقالية من الديكتاتورية إلى عهد الديمقراطية. إذ كانت رياح التغيير تهب من جميع الجهات على إسبانيا وهي تتهجى أبجدية حريتها بحبور، بعد نحو من أربعة عقود من تغييب الحريات وتكليم الأفواه. وفي تلك المرحلة برزت عشرات الأسماء اللامعة في الفن والموسيقى والسينما على وجه الخصوص التي باتت شهرتها عالمية، كما هو الحال مع المخرج بيدرو المودوبار والممثلين المعروفين أنطونيو بانديراس وكارمن ماورا.

في تلك الأيام من عام 1982 زارنا الشاعر رافائيل ألبرتي في جامعة أوتونوما وألقى علينا قصائده التي ألهمت روعي، فعكفت على دراسة أعماله، هو وبقية رفاقه من جيل ال 27 الشعري الخالد في تاريخ إسبانيا المعاصر. واستوقفتني الحرب الأهلية الإسبانية كثيراً وأسرنى أدب المنفى عبر شعرائها المنفيين في شتى البلدان: كخوان رامون خيمينث، ألبرتي، لويس ثيرنودا، بيدرو غارفياس، ليون فيليب، بيدرو ساليناس...، وروائيها وقصاصيها: كرامون سيندر، روسا تشاثيل، ماكس أوب، فرانثيسكو أيلالا، ماريا تيريسا ليون...، وكتّابها ومفكريها في المنفى: كماريا ثامبرانو، أميريكو كاسترو، كلاوديو سانتشيث البورنوث... وهكذا قررت، سنوات بعد عودتي إلى العراق أن أترجم الجزء الثاني، وهو الأهم، من مذكرات ألبرتي (الغابة الضائعة). وقد تلقفها القراء بسرعة غير مسبقة لأن الجمهور العراقي والعربي عموماً متعطش دوماً للأدب الإسباني لجودته ولندرة ما تترجم منه إلى العربية مقارنة بلغات أخرى كالانكليزية والفرنسية والروسية، وفازت ترجمتي بجائزة أفضل كتاب مترجم للعام 1993 في العراق.

محاولة ثالثة:

حين عدت للمرة الثالثة إلى مدريد، وبقيت حتى اليوم، كان ذلك في مطلع أيلول/سبتمبر عام 1995. جئت بشعور يتطابق وكلمات الشاعر ميغيل إرنانديث: "وصلت بثلاثة جروح: جرح الحياة وجرح الحب وجرح الموت". فقد قدمت إلى إسبانيا

في منتصف أعوام الحصار الذي فرض على العراقيين إثر غزو الديكتاتور الكويت عام 1990، وكان حصاراً ظالماً سيستمر من 1990 حتى سقوط نظام صدام عام 2003 مع الغزو الأمريكي.

في أعوام الحصار تلك كنت أرى وجوه طلابي في قسم اللغة الإسبانية مصفرة شاحبة من جوع وعوز، وأنا أجهد في التحدث إليهم عن ثربانتس وغونغورا وغازثيلاسو دي لابيغا وكيبيدو... لكن مع الجوع يغدو كل شيء عبثي بلا معنى، وكنت أصارع كي أمدهم بالأمل في ظروف لا إنسانية قاسية.

في تلك الظروف استقلت من عملي في جامعة بغداد ومن دار المأمون للترجمة والنشر في وزارة الثقافة والإعلام، وغادرت العراق بحقيبة واحدة نصفها كتب وقواميس، مع مبلغ ضئيل من المال لأن ذلك هو ما كانت تسمح به السلطات العراقية آنذاك.

كان العراق يعاني حصاراً كاملاً مات فيه نصف مليون طفل جوعاً، وكانت روحي معلقة ما بين بغداد ومدرّيد. لم تكن قد شاعت بعد ثورة الاتصالات والتكنولوجيا، وكان التواصل مع الأهل والوطن صعباً ومكلفاً حد البكاء، والعودة إلى الوطن كانت شبه مستحيلة.

في تلك الأعوام اكتشفت معنى أن أكون في إسبانيا تحديداً، فالشعب الإسباني من أكثر الشعوب تضامناً مع الآخر، فرداً كان أم شعباً. وكرمهم الإنساني هذا يتجلى في مجال احتضان الغريب ومدّ يد العون له، وقد وجدت في إقامتي بين ظهراينهم عزاءً عن غياب الأهل والوطن.

أتذكر أن أحد الأساتذة في جامعة أوتونوما حدثنا يوماً عن كتاب ذاع صيته منذ منتصف ستينيات القرن الماضي بعنوان "الإسباني والخطايا السبع الكبرى" كتبه فرناندو ديات بلاخا بأسلوب ساخر، وقد اقتنيت الكتاب وقرأته كي أتعرف على خطايا الشخصية الإسبانية، وحملته معي إلى بغداد لدى عودتي في الثمانينات. اليوم أقول إنني لحسن

الحظ لم أشهد من تلك الخطايا إلا أهونها مما لا يستحق التوقف عنده هنا، بل وجدت أن للإسبان فضائل كثيرة يلمسها القادم إلى بلادهم وربما، أحياناً، لا يشعرون بها هم أنفسهم. فالإسبان هم من أكثر الشعوب حباً للحياة وهذا يتجلى عبر نمط حياتهم المبهج الصاحب، المستمد بلا ريب من طبيعة البلاد الغنية بتنوعها وثرائها، ببحارها وجزرها وشواطئها، بجبالها وسهولها، بغاباتها وصحاريها، ولكل من هذه المناطق جمالها ومزاياها وصيغ حياتها وفنونها، وحتى أعيادها وموسيقاها وأطعمتها المميزة. بيد أن هذا الشغف بالحياة لا يقف عند حدود المتعة الأبيقورية بملذات الحياة بل يتجلى أيضاً عبر التضامن مع الآخرين، ويُستشف هذا من أعداد المنخرطين في العمل التطوعي من شباب يعملون في مناطق الصراعات والمجاعات في قارات أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا. كما يتجلى في تبني الأطفال الأيتام، وما أكثر من عرفت من الأسر الإسبانية ممن تبنت أطفالاً مرضى ومعاقين أيضاً. والكرم لا يقف عند هذا الحد إذ تنصدر إسبانيا قائمة بلدان العالم في التبرع بالأعضاء البشرية وهذا ما تؤكد البيانات كل عام. حب الحياة الذي يتصف به الإسبان يجعلهم يقدّرون الحياة عالياً، لهم ولسواهم، ويتضامنون مع الآخرين بسخاء واضح.

هنا لا بد لي من التأكيد على نبل الشعب الإسباني الذي خبر الظلم في مراحل الديكتاتورية، فبات ينتصر للعدالة الإنسانية حيثما كانت. لذا عندما أعلن الرئيس الأمريكي بوش الحرب على العراق عام 2003 ووقفت حكومة الحزب الشعبي اليميني آنذاك إلى صفه، وقف الشعب الإسباني النبيل بمتفقيه وفنانيه، بعماله وبسطائه، إلى جانب الشعب العراقي. وخرجت في إسبانيا أكبر التظاهرات في العالم المناوئة للحرب على العراق، الأمر الذي هوّن على ملايين العراقيين ظلم الموقف الرسمي. ولا يفوتني أن أذكر أيضاً أن الشعب الإسباني بوعيه وفطرته المتضامنة انتصر في أغليبيته لقضية الشعب الفلسطيني وما زال، وفي هذا يؤكد نبلة ونصرته للعدالة الإنسانية.

محاولة أكثر راهنية:

منذ بداية إقامتي في مدريد في منتصف التسعينات تأملت بانبهار ما أنجزته إسبانيا الديمقراطية في أعوام قليلة من تقدم في شتى مناحي الحياة الاقتصادية والصناعية والعمرائية، وعلى وجه الخصوص، الشوط الذي قطعه المجتمع الإسباني من تطور وتقدم على صعيد الحريات والحقوق الاجتماعية والسياسية. نساءً ورجالاً ناضلوا في المرحلة الانتقالية التي أعقبت وفاة الديكتاتور فرانكو للارتقاء بمجتمع العدالة وحقوق المواطنة. وتجلّت لي أهمية الحركة النسوية الإسبانية في ترسيخ دعائم المرحلة الانتقالية نحو الديمقراطية من خلال المطالبة بالحقوق والنضال من أجل سنّ التشريعات القانونية التي أطلقت قدرات النساء وكفلت لهن حقوق المواطنة التامة أسوة بالرجال، ليسهمن في بناء المجتمع الديمقراطي.

كنت واعية لهذا الأمر منذ صباي حين عملت كاتبة ومترجمة في مجلة "المرأة" في بغداد، وأنا بعد طالبة في المرحلة الجامعية الأولى، لهذا وجدت نفسي انخرط في التعاون مع المنظمات النسوية الإسبانية وقد تعلمت الكثير من تجربتهن في المطالبة بحقوقهن والخروج إلى رحابة المجتمع الديمقراطي المدني الحر. وتعرفت على نساء رائعات ما زلت أحمل لهن الإعجاب والتقدير وأنهل من تجاربهن وأغتني. لن تُفهم التجربة الديمقراطية الإسبانية بغير فهم وتقييم نضال النسوة اللواتي كان عليهن مواجهة أكثر من عائق من قبل المجتمع الذكوري وتزمت السلطة الدينية الكنسية والصراع الطبقي في إسبانيا.

أسماء رائدات إسبانيات منذ القرن التاسع عشر، كاتبات وصحفيات وناشطات للمطالبة بالمساواة مثل كلارا كامبواأمور وأميليا باردو باثان وفيكثوريا كنت،... ألهمتني الكثير. والنهضة التي وصلت إليها النساء في عهد الجمهورية في ثلاثينات القرن العشرين من حقوق، ثم الردة التي أطاحت بحقوقهن في أعقاب الحرب الأهلية (1936-1939) والنكوص الذي أصابهن طوال أربعين عاماً من حقبة الديكتاتورية حتى عام 1975 حين مات الجنرال فرانكو وبدأ عهد الديمقراطية، كلها علّمتني أنّ موضوعه حقوق المواطنين، والنساء تحديداً، هشّة ومعرّضة للمصادرة في أي لحظة نكوص يشهدها المجتمع.

حدث هذا في إسبانيا من قبل، وحدث في العراق أيضاً بين عشية وضحاها مع الاحتلال الأمريكي في 2003، وفي ما بعد حين تولت الفئات الرجعية وأحزاب الإسلام السياسي الطائفي مقاليد السلطة في البلاد وتكاثرت الميليشيات الطائفية المسلحة التي استهدفت حقوق الرجال والنساء معاً، وصودرت حريات النساء خاصة، تارة بالقوانين ومراراً بمنطق السلاح والقوة العاشمة.

أقول تعلّمت الكثير من التجربة الإسبانية في كفاح شعبها ضد الديكتاتورية وفي إدارة المرحلة الانتقالية بتنازلات الجميع، وصولاً إلى إقرار دستور الديمقراطية والعدالة الاجتماعية. وبرغم كل ما يوجه إليها من نقد الآن، فقد نجحت في تجربتها الديمقراطية وأرست قواعد دولة العدالة الاجتماعية المدنية بفصل الدين عن الدولة، بسلام وبدون حمامات دماء، كتلك التي تحدث في بلدي العراق حتى اليوم، بعد أن أثبت المشروع "الديمقراطي" الأمريكي فشله حين انتهى إلى إحلال هيمنة الأحزاب الإسلامية وميليشياتها محل النظام الديكتاتوري العلماني السابق.

التجربة الإسبانية نجحت في تحييد المؤسسة الدينية المتمثلة بالكنيسة الكاثوليكية لتتبنى دستور الدولة المدنية، إذ نص دستورها على أنها دولة "لادينية". من هنا فإن تجربة إسبانيا في المرحلة الانتقالية جديرة بالتأمل من قبل شعوبنا العربية التي تخوض نضالاً مريراً من أجل إقامة الدولة المدنية واستقلالية السلطات الثلاث وفصل الدين عن السياسة وضمان حقوق المواطنة المتساوية للجميع، وكلها عناصر أساسية لأي نظام ديمقراطي حقيقي.

درس إسبانيا هذا بليغ لشعوبنا العربية المبتلاة بالأنظمة الديكتاتورية وأحزاب الإسلام السياسي التي تمددت في العقود الأخيرة. إسبانيا دولة (لادينية)، هكذا ينص دستورها الديمقراطي، مع ضمان حرية العبادات للأشخاص، وهذا هو ما أحلم به لبلادنا العربية.

كلمة أخيرة:

انتهى الحيز المخصص لي ولم اتحدث بعد عن الرسم والنحت والعمارة الإسبانية، وإسبانيا فيها باع طويل وريادة أكيدة. تكفي زيارة واحدة لمتحف البرادو أو متحف الملكة صوفيا أو متحف تايسون، فضلاً عن عشرات المتاحف المتوزعة في كل أركان البلاد، للتأكد من ذلك. أسماء عالمية كبيرة في الفن، من بيلاثكيث وغويا مروراً ببيكاسو ودالي وجوان ميرو وتابيس حتى إدواردو أرويو وميكل بارثيلو ومانويل بالديس بلاسكو، وسواهم الكثير من الرسامين المدهشين، تحتاج إلى تسويد عشرات الصفحات. وقد دفعني عشقي الفن الإسباني إلى ترجمة كتاب (بيلاثكيث وروح الحداثة) لخوسيه أنطونيو مارابال بالتعاون مع الفنان العراقي خالد كافي.

كما لم أتطرق إلى الموسيقى الإسبانية التي تخاطب الروح من خلال شتى مدارسها وقوالبها الفنية: من مانويل دي فايلا واسحق البنيث وخواكين رودريغيث وصولاً إلى أنواع الغناء الشعبي التي أعشق: لاس كوبلاس، لا ثارثويلا، والغناء العميق المعروف بالفلامنكو...، فإسبانيا منجم إبداع فني لا ينضب.

والآن، هل قلت شيئاً في هذه العجالة؟ هل وصل للقارئ بعض من فيض محبتي واعتزازي ببلدي الجميل الثاني؟ لست متأكدة حقاً مما لدي من ذكريات إنسانية استثنائية عن إسبانيا وأهلها لا تسعه بضع صفحات حُددت لي سلفاً.

لكن لي أن اختتم حديثي بأني أدين في جزء كبير مما فعلته وكتبته في حياتي، من شعر وسرد وبحث وترجمة ومحاضرات، للثقافة الإسبانية ومبدعيها في شتى الحقول، ممن ألهموني نتاجاتهم وأوقدت في روحي وهج الكتابة وسعادة الإبداع، كما أدين لإسبانيا التي منحتني بكرم الأمان، لأكتب دوماً بحرية، كما أفعل الآن.

* هذه ترجمتي العربية لفصل حررته بالإسبانية من كتاب مشترك ثنائي اللغة بعنوان: إسبانيا بعيون العرب، *España vista por los árabes* إعداد وإشراف رولا فارس وفادي سلفيتي، دار الفارابي، 2022.